الطائفية والتفكيك بعد سقوط بغداد

د . عايض الردادي

[كتيب] الحلة العربية [١٢٢]

العدد الثاني والعشرون بعد المئة ـ صفر ١٤٢٨هـ / مارس ٢٠٠٧م

www.alraddadi.me

بسم الله الرحمن الرحيم

الطائفية والتفكيك بعد سقوط بغداد

د/ عائض الردادي

موقع الدكتور عايض الردادي
www.alraddadi.me

www.alraddadi.me

المجلة العربية

ثقافية . اجتماعية. جامعة

تصدر في المملكة العربية السعودية

رئيس التحرير : حمد بن عبد الله القاضي

هاتف ٤٧٧٥٩٧٥٢

الرياض _ طريق صلاح الدين الأيوبي (الستين)_ شارع المنفلوطي

سنترال ٤٧٧٨٩٩٠ _ فاكسملي :٤٧٦٦٤٦٤ تلكس (عربي / لاتيني)SJ٤٠٠٥٨٨

ص.ب ٥٩٧٣ الرياض ١١٤٢٣

عنوان<< المجلة العربية>> على الإنترنت:

WWW.ArabicMagazine.com

لمراسلة>> المجلة العربية<< على الإنترنت:

hnfo@arabic magazine.com.

www.alraddadi.me

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين وقائد الغر المحجلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

عندما رغب إليَّ أحد الفضلاء في الرياض أن أتحدث في منتداه الثقافي، اخترت موضوعا يلامس هموم الأمة التي تعيشها الآن، وتنذر بتمزيقها، وهو موضوع (الطائفية والتفكيك بعد سقوط بغداد) وقد استمعت إلى تعليقات بعد المحاضرة استفدت منها ثم عهدت بها إلى أستاذ لي فقرأها وأبدى ملحوظات قيمة، وقد عدت للمحاضرة مستفيداً من تلك الملحوظات، ومما اطلعت عليه من معلومات بعد إلقائها، وعندما قرأها الصديق الأستاذ حمد القاضي رئيس تحرير المجلة العربية طلب مني نشرها في كتيب المجلة، فاستجبت لرغبته الكريمة، وهاهي أمام القارئ آملاً أن أحظى بملحوظاته، ومؤملاً أن تسهم هذه المحاضرة في إيقاظ الهمم لمواجهة الخطر المتمثل في إيقاظ الفتن للمواجهة بين المواطنين، وهو الوجه الجديد للاستعمار بتوظيف سياسة "فرق تسد" أو "فرق تمزق الوطن".

www.alraddadi.me

من هدي النبوة:

ولا بد أن أشير بدءا أن الموضوع لن يخوض في الطائفية وأصولها ومعتقداتها أيّا كانت وإنما يتوجه وجهة معالجة لاستغلالها في إيجاد أسباب للتحارب والتواجه بين المسلمين، وهذه المعالجة تأتي امتثالا للتوجيه النبوي السديد فيما رواه البخاري[1] عن جرير أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له في حَجَّة الوداع: استَنْصَت الناس، فقال لهم صلى الله عليه وسلم: لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض".

وفي صحيح البخاري[2] عن الأحنف بن قيس قال: ذهبت لأنصر هذا الرجل[يعني علي بن أبي طالب، وكان الأحنف تخلف عنه في وقعة الجمل] فلقيني أبو بكرة، فقال: أين تريد؟ فقلت : أنصر هذا الرجل، قال: ارجع ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار. قلت: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصا على قتل صاحبه".

وأورد ابن حجر العسقلاني[3] عشرة تفاسير لمعنى الكفر في قوله ﷺ (لا ترجعوا بعدي كفاراً) منها أنه يعني كفاراً بحرمة الدماء وحرمة المسلمين وحقوق الدين، ومنها تفعلون فعل الكفار في قتل بعضهم بعضاً، ومنها أن المراد الزجر وليس الظاهر مراداً، ومنها أن المعنى ترجعون

www.alraddadi.me

كفاراً بنعمة الله، وليس المراد كفر الخروج من الملة ولم يقل بذلك إلا الخوارج.

التاريخ دروس وعبر:

ولنقف بدءاً عند نظرة ابن خلدون للتاريخ في أنه دروس وعبر للأمم، فالأمة ذات العقول الراجحة، والبصائر المتفتحة، تستفيد من عبر التاريخ في معرفة العدو من الصديق، ولا يخدعها عدوّها بتوظيف تاريخها ليواجه بعضها بعضاً بالسلاح أو بالمواقف، أما الأمة التي لا تأخذ دروساً من حوادث الزمان فإن التاريخ سيعيد حوادثه بأشخاص آخرين، وستدخل الأمة في الصراع، وستظهر منه مثخنة إن لم تكن مدمرة، لأن التاريخ عندها قد لا يزيد عن أحداث تروى دون أن تتوغل إلى العقول لأخذ العبر، ولعل هذا سبب تسمية ابن خلدون كتابه في التاريخ (كتاب العبر) ولعل ذلك ما دعاه لكتابة مقدمته المشهورة التي طغت شهرتها على تاريخه.

يرى ابن خلدون أن التاريخ[٤] "محتاج إلى مآخذ متعددة، ومعارف متنوعة، وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق، ويُنَكِّبان عن المزلات والمغالط؛ لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تُحكَّم أصول العادة، وقواعد السياسة، وطبيعة العمران والأحوال والاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر

www.alraddadi.me

بالذاهب؛ فربما لم يُؤمَن فيها من العثور ومزلة القدم، والحَيْد عن جادة الصدق".

ويمضي ابن خلدون متحدثاً عن فضل علم التاريخ فيقول:[٥] (فإذاً يحتاج صاحب هذا الفن إلى العلم بقواعد السياسة، وطبائع الموجودات، واختلاف الأمم والبقاع والأعصار في السير والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال، والإحاطة بالحاضر من ذلك ومُماثَلَة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو بَوْنِ ما بينهما من الخلاف، وتعليل المتفق منها والمختلف،والقيام على أصول الدول والملل، ...).

فالتاريخ عند ابن خلدون" خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس، والعصبيات، وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض"[٦]، فهو عنده إذاً حسن نظر، وتثبت من الأخبار أولاً، وقياس للغائب منها على الشاهد والحاضر بالذاهب، وعلم بقواعد السياسة وإحاطة بالحاضر ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق والخلاف، وتعليل المتفق والمختلف، وكل ذلك من أجل الوصول إلى جادة الحق وأخذ العبر منها وإلا صار التاريخ حكايات للسمر لا يخرج منها الراوي بحسن ثمر.

ولعل مؤرخ الإسلام شمس الدين مُحَمَّد بن أحمد الذهبي (ت٧٤٨هـ) تنبَّه إلى أخذ العبر من التاريخ حين اختصر كتابه (تاريخ

www.alraddadi.me

الإسلام) وسمى المختصر(العبر من خبر من غبر)[٧] ولعله أراد من ذلك أن تكون أحداث التاريخ للدروس والعبر وليست للتسلية والسمر، ولعله هو الذي أوحى لابن خلدون(ت٨٠٨هـ) بتسمية تاريخه (كتاب العبر) وإن فاقه ابن خلدون بكتابة المقدمة لتكون تأصيلا لمن أراد الاعتبار من حوادث التاريخ لبناء المجتمع الإنساني.

احتلال بغداد سنة ٦٥٦هـ:

ولنعد لاحتلال التتار لبغداد سنة٦٥٦هـ وقتل أكثر أهلها حتى الخليفة وانقضاء دولة بني العباس (دولة هارون الرشيد والمأمون) وموجز ما أورده ابن كثير في "البداية والنهاية"[٨] أن هولاكو قائد التتار أحاط بدار الخلافة يرشقها بالنبل من كل جانب حتى أصيبت جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه حين أصابها سهم من بعض الشبابيك، وكان عدد جند التتار نحو مئتي ألف مقاتل "وجيوش بغداد في غاية القلة ونهاية الذلة لا يبلغون عشرة آلاف فارس" وكانوا قد صرفوا من الخدمة العسكرية حتى تسوّل كثير منهم في الأسواق وأبواب المساجد، وكان الصراع بين السنة والشيعة على أشده ووصل إلى الحرب والنهب وانتهى الأمر بمواطأة وزير الخليفة المستعصم المعروف بابن العلقمي للتتار، وعزا المؤرخون ذلك إلى الصراع المذهبي، وخرج الخليفة في سبع مئة راكب من القضاة والفقهاء والأعيان والأمراء لمقابلة هولاكو،

www.alraddadi.me

فلما اقتربوا منه خلص الخليفة إليه بسبعة عشر رجلاً وأُنزل الباقون وقُتلوا عن آخرهم، وعاد الخليفة إلى قصره فأحضر الذهب والأشياء النفيسة فأحضرها لهولاكو فأخذها وقتله، ويصف ابن كثير ما حصل بعد ذلك بقوله[٩]: " ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان، والمشايخ والكهول والشبان، ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش، وقُنِيّ الوسخ، وكمنوا كذلك أياما لا يظهرون، وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب، ففتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة... وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلها كأنها خراب، وليس فيها إلا القليل من الناس، وهم في خوف وجوع وذلة وقلة".

وذكر ابن كثير أن القتل استمر ٤٠ يوماً وأن عدد من قتل (ثمان مئة ألف وقيل ألف ألف وثمان مئة ألف) وقيل أكثر من ذلك، ومما أورده ابن كثير من وصف للقتلى أنهم كانوا كالتلول، وأنه سقط عليهم المطر فأنتنت البلد، وتغير الهواء، وحصل الوباء الشديد حتى سرى في الهواء إلى الشام، ولما نودي بالأمان في بغداد خرج من كان بالمطامير والقُنِيّ والمقابِر، وقد أنكر بعضهم بعضاً، فأخذهم الوباء ولحقوا من سبقهم من القتلى.

www.alraddadi.me

ووصف ابن كثير الخليفة المستعصم بالعدل وكثرة الصدقات وإكرام العلماء والعبَّاد "ولكن كان فيه لين وعدم تيقظ ومحبة للمال وجمعه".

أما وزيره مُحَمَّد بن أحمد المشهور بابن العلقمي فقد وصفه ابن كثير[١٠] أنه من الفضلاء في الأدب والإنشاء، وأنه وزير سوء على نفسه، وعلى الخليفة، وعلى المسلمين، وأنه حصل له من الوجاهة أيام المستعصم ما لم يحصل لغيره من الوزراء ومع ذلك وقف إلى جانب التتار ومكنهم من دخول بغداد، ويقال إنه هو الذي هوّن على هولاكو قتل الخليفة، ثم يذكر ابن كثير أن هذا الوزير حصل له الإهانة والذل على أيدي التتار حتى قالت له امرأة وهو راكب بِرْذوناً: أهكذا كان بنو العباس يعاملونك؟ فوقعت كلمتها في قلبه وانقطع في داره إلى أن مات كمدا في مستهل سنة ٦٦٣هـ ولحقه في السنة نفسها ابنه الذي ولي الوزارة بعده.

أما الشخص الآخر الذي أمد التتار بالمساعدات قبل احتلالهم بغداد فهو البدر لؤلؤ صاحب الموصل خوفاً على نفسه، ومصانعة لهم كما قال ابن كثير، فلما رجع هولاكو من بغداد "سار إلى خدمته طاعة له، ومعه الهدايا والتحف" ورجع من عنده إلى الموصل ولم يمكث إلا أياما يسيرة ثم مات[١١].

www.alraddadi.me

ولم يقتصر أمر معاضدة الغازي على من سبق، بل إن هولاكو لما سار على رأس فريق من جيشه لمحاصرة بغداد من الشرق سار "وبصحبته كثير من أمراء المسلمين من أمثال أبي بكر سعد زَنْكي أتابك شيراز، ونصير السعدي الكاتب والشاعر الفارسي المشهور، وبدر الدين لؤلؤ أتابك الموصل، وسكرتيره الخاص مَلك الجويني صاحب التاريخ المشهور بتاريخ جهان جشا (Jahan Gusha) ونصير الدين الطوسي"[١٢].

هذه مأساة بغداد عام ٦٥٦هـ، التي كانت مأساة أمه، ولم تكن مأساة مدينة، أو هي نكبة ما نجا منها أحد كما قال شمس الدين مُحَمَّد بن أحمد الكوفي[١٣] (ت٦٧٦هـ) في إحدى قصائده في رثاء بغداد:

يا نكبةً ما نجا من صَرْفها أحد من الورى، فاستوى المملوك والملكُ
تمكنتْ بعد عزّ في أحبتنا أيدي الأعادي، فما أبقوا ولا تركوا

عبر من الماضي:

وإذا ما عدنا إلى نظرية ابن خلدون في التاريخ بأن تكون حوادث التاريخ عبراً فهو حسن تثبت ونظر، تتحكم فيه أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة الاجتماع البشري، يقاس فيه الغائب بالشاهد ويُحتاج فيه إلى مماثلة ما بين الحاضر والغائب من الوفاق أو البُعْد؛ فإننا سنجد العبر الآتية:

www.alraddadi.me

١-الضعف العسكري الذي تمثل في إضعاف الجيش وتسريح العسكر حتى وصل العدد إلى عشرة آلاف من مئة ألف، وتسولوا في الأسواق والمساجد وأين ذلك من قول الله تعالى: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل، ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم)[١٤].

٢-الضعف السياسي المتمثل في وصف الخليفة المستعصم بالانصراف إلى اللهو وإسناد الأمر لغير أهله أو كما قال ابن كثير "اللين وعدم التيقظ"مع ما فيه من العدل والاستقامة العبادية.

٣-الصراع المذهبي الطائفي الذي أدى إلى مواطأة الغازي والتعاون معه بل تولي وظائف له.

٤-معاضدة الحكام خارج بغداد للغزاة خوفاً أو مصانعة.

٥-المهانة التي لقيها من تعاون مع الغزاة في بغداد وخارج بغداد بعد تمكن المحتل، وتلك سنة الله في كل خائن.

٦-الذلة والمهانة والخنوع الذي قابل به السكان الغزاة حتى كان التتار يدخلون على الجماعة في المنزل فيقتلونهم الواحد تلو الآخر دون أي مقاومة.

التاريخ يعيد نفسه:

www.alraddadi.me

لو أمعنا النظر في الحوادث والأشخاص الذين وردوا في تاريخ ابن كثير؛ لوجدنا التاريخ يعيد نفسه، فالأحداث عادت بصورة مشابهة إن لم تكن مطابقة لما دوّنه ابن كثير، فقد تغير الذين قاموا بالأدوار ولم تتغير الأحداث ولا أدوارهم في الاحتلال، فقَبْل احتلال بغداد الجديد في ١٤٢٤/٢/٧هـ الموافق ٩/ إبريل ٢٠٠٣م خفض الجيش العراقي الذي خاض حرب عشر سنوات ضد إيران ودُمرت أسلحته على مرأى من العالم، وبرز الضعف السياسي والتشرذم والانقسام في المنطقة، وأدى الصراع المذهبي إلى التواطؤ مع الغزاة بل كان ظلا استظل به الغزاة، ولم يلبث من قاموا بدور ابن العلقمي (أو أبي رغال سابقاً) أن أُهينوا وطردوا من قِبل الغزاة بعد أن انتهى دورهم، وكانت الذلة في أوهى صورها حين ذاب الجيش العراقي المدافع عن بغداد في ساعات، وسيكشف التاريخ سر ذلك، وإن كانت المقاومة قد انطلقت فيما بعد بما جعل الغازي يعترف بإخفاق كل خططه ولكن الكلام عن زمن سقوط بغداد.

الوجه الجديد للاستعمار:

تلك عبر ودروس للأمم التي تأخذ دروس التاريخ وكلها مهمة، لكننا سنستصحب منها ما يخص موضوعنا وهو مماثلة ما بين الحاضر والغائب من توظيف للخلافات الطائفية في تمزيق الأمة خدمة للغازي، ومن تغليب الانحياز للطائفية على الانتماء الإسلامي والوطني، وعدم

www.alraddadi.me

تيقظ الناس لذلك، وعدم أخذهم العبرة من التاريخ، فالطائفية لم تكن جسراً للمحتل فحسب بل نجح المحتل في توظيفها لتكون وسيلة للانقسام والتحارب بين أبناء البلد الواحد بما بدا أنه بداية للامتداد للبلدان الأخرى أو هو الوجه الجديد للاستعمار الجديد.

من الحقائق التاريخية أن أي محتل لم يؤبَّد في بلد احتله حتى لو مكث قرونا، وقد استطاع العرب عبر تاريخهم مواجهة كل الموجات الغازية وهزيمتها، لكن الداء العضال الذي مزق وحدتهم، وأشعل الحروب بينهم هو الطائفية الدينية السياسية، فمنذ معركة(النهروان) بين الإمام علي بن أبي طالب –كرم الله وجهه– والخوارج؛ دارت المعارك بين العرب تلبس لبوس الدين، والحقيقة الباطنة هي السياسة ولذا لم تقع حروب بين المذاهب التي ليس لها ذراع سياسي.

وأسوأ ما في الطائفية المذهبية السياسة أنها وظفت من العدو المحتل للاحتلال كما حصل في احتلال بغداد عام ٦٥٦هـ وفي الوقت الحاضر، إضافة إلى استغلال القوى العِرْقية غير العربية لهذه الطائفية لتحقيق أهدافها المرتكزة على الأيديولوجية المذهبية، ومثل ذلك لبنان الذي مزّقه المستعمر إلى (١٩) طائفة موظِّفاً الطائفية في المحاصصة السياسية ومؤيدا ذلك بالدستور الدائم، ودخلت الطوائف اللبنانية حرباً لمدة(١٥) عاماً لم يخرج منها لبنان بغير سفك الدماء والدمار، واتضح

www.alraddadi.me

بجلاء أن الطائفية ليست إلا في مصلحة من صنعها ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، وهي الذراع الخارجي للتدخل في لبنان إلى يومنا هذا، والأمر نفسه طُبق في العراق بعد الاحتلال الأخير حيث كانت المناصب السياسية محاصصة مذهبية أو عرقية.

الطائفية في العراق:

الطائفية السياسية(سواء أكانت مذهبية أم عِرْقية) تحاول أن تمزق أوصال العراق الآن إلى دويلات، والمذابح الدائرة الآن لن تخرج بغير ما خرج به لبنان بعد (١٥) عاما من الحرب، وسيتنادون أخيرا إلى المفاوضة وإيقاف النزيف، ولكن بعد دمار البلاد والعباد، وسيجدون أن العربي بقي عربياً، والكردي كردياً، والسني سنياً، والشيعي شيعياً، وأن الحاصد للثمار هو العدو المحتل حالياً والآخر المتربص في الجوار انتظاراً للتصفيات بين إخوة المواطنة.

صوّر د. فالح عبد الجبار في كتابة "الدين والإثنية والتوجهات الأيديولوجية في العراق: من الصراع إلى التكامل"[١٥] المجتمعَ العراقي قبل نشوء الدولة العراقية الحديثة عام ١٩٢١م وبعد نشوئها، وخلاصة ذلك أن الرقعة الجغرافية التي تؤلف العراق الموحد كانت إبان العهد العثماني مؤلفة من ثلاث ولايات هي الموصل وبغداد والبصرة و"الجماعات التي كانت تقطن هذه الرقعة منظَّمة على أساس تقليدي من قبائل،

www.alraddadi.me

وبيوتات، وطوائف ومدن مغلقة، بل إن أحياء المدن معزول بعضها عن بعض" ويقول عن الوضع بعد وجود الدولة العراقية "وأخذت المدن تتغير داخليا، بنشوء أحياء جديدة تسكنها فئات حديثة من الأطباء والمهندسين والضباط والإداريين تقوم على المهن الحديثة وليس على الانتساب التقليدي القديم" ويصل إلى القول:" ولنلاحظ أن الشيعة والسنة والأكراد وغيرهم لم يكونوا لا في العهد الزراعي ولا في العهد الانتقالي منظَّمين في كتلة واحدة متماسكة، فالأكراد والعرب والشيعة والسنة كانوا ينقسمون في الريف إلى قبائل ذات هوية قبلية محلية حتى وإن كانت واعية لتميزها الديني والإثني، وكانت الوحدة القبلية(وما تزال في أرياف العراق) أهم من الوحدة الدينية" وضرب مثالاً على الوحدة القبلية بشمّر والجبور، فشمر بعد استقرارها في الشمال وفي الجنوب وانتماء شمر الجنوبية إلى الشيعية والشمالية إلى السنة " بقي الطرفان شمريين، يلتقون ويتصاهرون ويتنادون عند المحبة" ومثلهم الجبور فهم شيعة وسنة بل إن عشائر المنْتفق جُل أفخاذها تشيع وبقيت زعامتها سنية.

ثم يعرض حالة التحضر السريع في العهد الملكي ثم الجمهوري ففي عام ١٩٤٧م بلغ سكان المدن٣٦% ليرتفع إلى ٤٨% عام ١٩٥٧م ليصل إلى ٧٢% عام ١٩٩٠م وهي من النسب الحضرية العالية، وهذا التحول شمل كل الجماعات الإثنية (العرب والأكراد

www.alraddadi.me

والتركمان) وكل الجماعات الدينية(المسلمين والمسيحيين والصابئة واليزيديين...) وكل المذاهب (السنة والشيعة) وأصبحت الطبقات الاجتماعية ترتبط بالمصالح الاقتصادية والثقافية الجديدة في بيئة الحواضر.

ويخلص د. فالح إلى أنه لا يوجد تكتل طائفي واحد (عرقيا أو مذهبيا) بل في كل تكتل انقسامات : "فالشيعة كالسنة ليسوا كتلة واحدة بلاتمايز" و"الأكراد موزعون إلى أربع مجموعات" حتى يصل إلى القول:"من أين تأتي إذاً التخيلات بأن الشيعة أو السنة كتلة طائفية واحدة، وأن الأكراد كتلة إثنية واحدة، ميّالة إلى تشطير العراق شظايا وأشلاء؟ تأتي هذه التصورات من الدراسات التبسيطية الاستشراقية التي تنكر على مجتمعاتنا القدرة على تكوين حياة وطنية موحدة، كما تأتي هذه التصورات من الإعلام أيضا، والإعلام كارثة، فهو ميال إلى التبسيط للسرعة في التغطية، مليء بشباب قليل الخبرة والاطلاع".

ويختم د. فالح محاضرته الواقعة في ٢٦ صفحة بملحق عن تكوينات سكان العراق عام ٢٠٠٠م البالغ عددهم ٢٤ مليوناً منهم ٧٥% سكان المدن و٢٥% سكان الريف، ونسبة العرب ٧٧.١% والأكراد ١٩% والتركمان ١.٤% والآشوريون ٠.٨% والفرس٠.٨% أما التركيب الديني فالمسلمون ٩٥.٥% منهم ٥٣.٥% شيعة من كل

www.alraddadi.me

الأعـراق السـابقة و ٤٢.٣% سـنة (عـرب وأكـراد وتركمـان) ٣.٥ مسيحيون و٠.٧% أديان أخرى.

وروي لي شخصية ثقافية موثوقة أنه التقى الدكتور محسن عبد الحميد (وهو أحد الذين تولوا مجلس الحكم المؤقت إبان حكم الحاكم الأمريكي بريمر للعراق) فأوضح له أن دراسة أجريت بعد عهد الرئيس صدام حسين أبانت أن نسبة الشيعة ٤٥%، على أن الشيخ حارث الضاري قد أوضح أن وزير التخطيط العراقي قبل ثلاث سنوات(أي بعد الاحتلال) أعلن النسبة الأخيرة لسكان العراق حيث قال في مقابلة مع صحيفة الجزيرة يوم ١٤٢٧/١٢/٢٨هـ،١٧/ ١/٢٠٠٧م: [١٦]" أما من حيث المذهب فالسنة أكثرية، وهم يشكلون ٥٦% من مجموع سكان العراق، وهذا ما أعلنه قبل ثلاث سنوات وزير التخطيط العراقي الدكتور مهدي الحافظ، وهو بالمناسبة من إخواننا الشيعة، وقد اعتمد في دراسته على (البطاقة التموينية) إذاً السنة (من عرب وكرد وتركمان) يشكلون ٥٦% والشيعة يشكلون ٤٢%، والعرب السنة من الـ٥٦% يشكلون ٣٨%، إذاً أين الأكثرية إذا ما سلمنا بذلك؟ لكن الخطأ في فكرة الأغلبية أذيع فأشيع من قبل وسائل الإعلام العربية والأجنبية التي تدور في فلك الاحتلال وحتى بعض الزعماء العرب عندما يتكلمون ويتحدثون عن أغلبية شيعية".

www.alraddadi.me

إذاً قبل الاحتلال لم يكن يوجد تكتل مذهبي ولا تكتل عِرْقي، وإنما كان يوجد وحدة قبلية متعددة المذاهب، دون صراع مذهبي، ووُجد فيما بعد تكتل حضري رابطته المصالح الاقتصادية، أما التكتل على أساس عِرْقي أو مذهبي فهو صناعة الاحتلال، وغذته الطموحات السياسية للزعامات، وأشعل جذوته الإعلام الموجه، وكلها نجحت في تعميق الهوة بين أبناء الوطن الواحد ليواجه بعضهم بعضاً، وكلهم مواطنون بغض عن الانتماء المذهبي أو العرقي، وكلهم له حق العيش على أرض الوطن، أما الذي يجني الثمار فهو المحتل الرابض على الأرض والآخر المتوثب على الحدود لأطماع سياسية أو لتصفية ثارات تاريخية.

تفتت الطائفة إلى طوائف:

"ويقول محللون ومصادر داخل الجماعات السياسية الشيعية المختلفة إن الخطط التي تدعمها الولايات المتحدة الأمريكية، لتأسيس مناطق حكم تتمتع بحكم ذاتي، وتستفيد بشكل غير متساوٍ من الثروة النفطية؛ تهدد بإشعار صراع أكبر بين الفصائل المتنافسة داخل الأغلبية الشيعية، يمكن أن يحول العنف الفوضوي القائم بالفعل إلى أقذر حرب على الإطلاق" وتقول وكالة رويترز التي أوردت هذا القول[١٧] إن "الانقسامات متأصلة في صراعات بين أسر رجال الدين الشيعة الذين يهيمنون على السياسة العراقية" وقد فصل عادل الطريقي هذه

www.alraddadi.me

الصراعات في عرض تاريخي وتحليل آني في مقال طويل له في جريدة الرياض[١٨] بعنوان "حكاية الصدر: كيف تحولت التيارات الأصولية في العراق إلى ظاهرة حكم طائفي لن يتزحزح؟" موضحاً أنه يوجد الآن في العراق ما يقارب من ٨٠-١٢٠ ألف مسلح يتبعون للمليشيات الدينية الشيعية" وأن منها حوالي ٣٥ ألف مسلح تتبع جيش المهدي" ليصل القول " إن بوادر الحرب الأهلية قد تنشأ بين الجماعات الشيعية فيما بينها، واليوم هناك جدل حول زعامة البيت الشيعي" بل إن رئيس الوزراء العراقي الحالي نوري المالكي قال في مقابلة مع وكالة رويترز"إن الصراع في الأقاليم سيكون بين شيعة وشيعة وسنة وسنة"[١٩] وإن صحت فهي جزء من الصورة، وإن كان لا يلوح في الأفق صراع بين السنة الذين تنادي كل أحزابهم بوحدة الوطن وخروج المحتل بخلاف المليشيات الشيعية المدعومة من الخارج.

ويرى د. حازم النعيمي أستاذ العلوم السياسية في جامعة المستنصرية في بغداد أن قانون الفدرالية" سيتسبب في قتال داخلي بين الشيعة، وأن كل فصيل سيرغب في السيطرة على إقليم" مشيراً إلى أن الصراع سيكون أيضا بين أسر رجال الدين في مدينة النجف على الزعامة الروحية[٢٠].

www.alraddadi.me

نخلص من هذا إلى أن ما تعرضه وسائل الإعلام من صراع مذهبي بين الشيعة والسنة ليس إلا مرحلة ستتبعها مرحلة أخرى في الصراع داخل الفئة الواحدة، والسبب أن من صنع هذا الصراع يريد تحقيق هدفه في التفكيك للوحدة الوطنية التي لم تشهد قبل ذلك صراعا على أساس مذهبي وإنما كان الصراع صراعاً سياسياً يجمع المذاهب كلها، وفي حزب البعث الذي كان يحكم العراق شاهد لذلك، فهو ائتلاف جمعه البعث السياسي وليس وحدة الدين أو المذهب أو العرق، فأعضاؤه من كل الأديان والمذاهب والولاء للبعث وحده هو سلم الانتساب إليه.

التفكيك الذي يشهده العراق – وهو بؤرة للتصدير لكل الدول القريبة والبعيدة –جاء لتفتيت النسب الكبيرة فالعرب الذين يؤلفون ٧٧% قُسموا إلى سنة وشيعة، والمسلمون وهم ٩٥.٥% قسموا إلى عرب وأكراد، وهذا التفتيت مرةً بُني على الدين ومرة على العِرْق، وكل من العرقين العربي والكردي فيهم سنة وفيهم شيعة، والذي تبديه الأحداث أن قيادة الصراع في عناصر ذات أصول أو ولاءات غير عربية وإلا فإن بلداً غالبية سكانه من العرب ينبغي أن يكون عربياً على غرار تركيا وإيران التي صُنّفت على أساس العنصر العرقي أي الأغلبية فيها وليس على أساس المذهب.

www.alraddadi.me

وأوردت وسائل الإعلام الأجنبية أن عدد القتلى منذ الاحتلال لبغداد (٦٥٠) ألفاً[٢١] وزاد عدد المهجرين حسب إحصاءات مفوضية الأمم المتحدة العليا للاجئين عن المليونين، وعدد قتلى السنة منذ الاحتلال يزيد على (٣٠٠) ألف[٢٢]، وأكد د.حارث الضاري الذي أورد هذا الرقم : "أن الاحتلال الأمريكي أوقد نار الفتنة لإشعال الحرب الأهلية في كامل العراق، سواء من خلال دعمه حكومات عميلة تحت غطاء الديمقراطية أم من خلال الدستور الذي حمل البذرة الخبيثة (الفدرالية) التي ستجهز على الهوية العراقية[٢٣]".

تصدير التفتيت:

لقد نجح مشروع الطائفية في لبنان في خدمة من وضعه وصار ذراعاً للتدخل الخارجي ونجح في تصنيف السكان حتى في تصنيف المناصب، وعند احتلال العراق أطلقت وعود بنشر الديمقراطية وبوجود شرق أوسط كبير ثم شرق أوسط جديد وكلها لم تُجْدِ نفعاً، فتم اللجوء إلى الطائفية المجربة في التفكيك والتفتيت في المواجهة بين الطوائف، وستتحول إلى تصفيات بين أبناء الطائفة الوحدة أو العِرق الواحد وذلك ما يسعى إليه المحتل، أما المرحلة التالية فهي تصدير التفتيت للدول الأخرى وقد يأخذ التفتيت منحى الإثارة الطائفية المذهبية أو العرقية أو الإقليمية أو أي ثنائية مماثلة، وقلّ أن تخلو بلاد من وجود ثنائية.

www.alraddadi.me

غياب الوحدة العربية:

والملاحظ أنه في ظل نشر ثقافة الطائفية غاب تعبير "العالم العربي" أو "الدول العربية" ولما لم ينجح البديل السابق وهو الشرق الكبير أو الجديد، نجحت الطائفية في إسقاط الوصف بالعربية عن دول المنطقة وبدا أن للشعوبيين دوراً بارزاً، وظهر بوضوح في وجود مليشيات الاغتيال بارتداء ملابس قوات الأمن، سواء أكانت قوات حقيقية أم مزيفة.

دور الفضائيات في التفكيك:

ودعم الطائفيون والغزاة الاستعمار الجديد بإنشاء الفضائيات الطائفية المؤدلجة دينياً أو سياسياً وبفضائيات أخرى هابطة موجهة للشباب وبخاصة فيما عُرف ببرامج الواقع التي تسعى إلى إضعاف الوعي الديني والوطني، وهي لا تقل في أداء الرسالة للغزاة ولروّاد التفتيت والطائفية عن الفضائيات المذهبية المؤدلجة التي تدعو لإشعال الفتن الطائفية من دعاة يشبهون الغربان السوداء، وكلا السلاحين (التفتيت الطائفي أو تغييب الوعي) من صناعة الغزاة والشعوبيين، وليس رموز الطائفية سوى غربان بَيْن تنعق بما يهلك الآخرين ثم بما يأتي عليها.

الوحدة الوطنية:

www.alraddadi.me

إن المطلوب في البلاد التي مزقتها الطائفية أو التي ستصدر إليها هو المحافظة على الانتماء الإسلامي، وعلى الوجه العربي، وعلى الوحدة الوطنية، فهي السياج الذي يجمع ولا يفرق، واجتماع هذه الثلاثة أو انفراد واحد منها كاف في حياة أمة منظّمة في دولة، وكثير من الدول فيها تعدد ديني أو مذهبي أو عرقي ومع ذلك أخذت ما يجمعها من تلك الأمور وأقامت عليه وحدتها الوطنية، فالهند مثلاً تنطوي على مئات الأديان وعشرات اللغات وكثير من الأعراق، ولم يؤثر ذلك على وحدتها الوطنية، التي قامت على وحدة الأرض، والولايات المتحدة تخلو من عنصر وحدة اللغة أو العرق أو الدين وقد أقامت وحدتها على وحدة العيش على أرض واحدة، وحتى الدول المتجانسة عرقياً ودينياً(وهي لا تزيد عن ١٥ دولة) أخذت تفقدها نقاءها بفعل الهجرة والاختلاط، فيكفي المخلصين لوحدة الوطن أحدُ هذه المرتكزات لجمع الشمل وبناء الوطن، وتوفير حياة كريمة للمواطن إذا وجد الإخلاص، وضُرب بيد من حديد على غربان الفرقة وحداة الغزاة أو عملائهم، فالأمة "مجموعة من الناس الذين يشعرون أنهم يشتركون بهوية واحدة، تميزهم عن غيرهم من الشعوب"[٢٤] وتضمن لكل مواطن حقوق المواطنة أيًّا كانت، والوطن يتسع للجميع في ظل العدل والمساواة في الحقوق، أما بغير ذلك فلن يجتمع شمل، ولن يستتب أمن، ولن ينعم أي طرف بالأمن الدائم.

www.alraddadi.me

الصحوة بعد فوات الأوان:

ومن جمعتهم أرض واحدة ولم يستفيدوا من دروس التاريخ سيعودون إلى صوابهم ولكن بعد فوات الأوان، ومن أهم ما يجب عليهم الأخذُ على أيدي سفهائهم من دعاة الطائفية ومن دفعتهم الطائفية والأطماع السياسية إلى الاستعانة بالغزاة.

وفي حالة العراق مثلاً سعى المخلصون من العرب والمسلمين إلى عقد مؤتمرات وطنية للعراقيين، وإلى عقد مؤتمر للعشائر العراقية، وإلى عقد قمة إسلامية في مكة المكرمة دعت للوفاق الوطني، وإلى عقد لقاء لكبار القيادات الدينية السنية والشيعية بمبادرة من منظمة المؤتمر الإسلامي لإيقاف نزف الدماء والقتل على الهوية، ولم يثمر كل ذلك لأن دعاة التفكيك كلما رأوا نوراً أطفؤوه ولم تذرف عيونهم دمعة على دماء الأطفال والنساء والأبرياء وتهريب الفتيات العراقيات للعمل في النشاطات غير الأخلاقية[٢٥]، وقد أعلنت منظمة حقوقية في العراق أن أكثر من ألفي امرأة خطفن منذ الاحتلال في ٩ إبريل ٢٠٠٣م وبعضهن تم بيعه سلعاً داخل العراق وخارجه، وأن ما بين ٩٠ .١٠٠ امرأة يترملن يومياً، فأصبح هناك مئات من الأطفال اليتامى، وأن النساء قبل الاحتلال يذهبن للعمل والدراسة بأمان أما الآن فهن يتعرضن للخطف والقتل والاغتصاب[٢٦]، ومن يتابع صرخات النساء على

www.alraddadi.me

شاشات التلفزيون يتمزق قلبه ألماً، ويردد مع الشاعر المصري مُحَمَّد مصطفى حمام(ت١٩٦٤م) قوله في قصيدة (علمتني الحياة)[٢٧] :

وتظل الأرحام تدفع قابيـ ـلا فيردي ببغيه هابيلا
ونشيد السلام يتلوه سفَّا حون، سنوا الخراب والتقتيلا
وحقوق الإنسان لوحة رسّا م ، أجاد التزوير والتضليلا
صور ما سرحت بالعين فيها وبفكري إلا خشيت الذهولا

الختام:

إذاً ما الحل؟! الحل هو في الاستفادة من عبر التاريخ، وفي صحوة التائه، وفي الأخذ على يد السفيه،وفي الالتفاف حول ما يوحد الوطن، ويحفظ الدين والأنفس والأموال والأعراض.

ولعل مما يحسن الختام به صرخة شاعر عراقي في زمن سابق شبيه باليوم، إنه الشاعر عبد الرحمن البناء الذي وصف داء المذهبية كأنه يعيش واقع العراق اليوم، فقال في قصيدة له عام ١٣٥٣هـ عنوانها "في المولد النبوي"[٢٨]:

يا حماة الدين الحنيفي هبوا وادفعوا عن حماكم الأشرارا
لا تملوا، لا تجزعوا، لا تولّوا اجمعوا الأمر، وحدوا الأفكارا
وحدوها (**فالمذهبية**) **داء** جَرَّبته اليهود ثم النصارى
ادفنوا سرّها ولا تدعوها يكشف (الأجنبي) عنها الستارا

www.alraddadi.me

إن للأجنبي فينا عيوناً بثها حيث تفضح الأسرارا

فاتحاد المسلمين حصن حصين يقف الخصم دونه محتارا

---

(١) الجامع الصحيح١/٢١٧ برقم ١٢١،طباعة المطبعة السلفية/١٣٨٠هـ.

(٢) ١٣/١٩٢و١٩٣ برقم ٦٨٧٥.

(٣) انظر فتح الباري١٢/١٩٤و ١٣/٢٧.

(٤) مقدمة ابن خلدون١/٢٩١،ط٣،دار نهضة مصر، القاهرة.ينكبان: يجنبانه ذلك ،الحيد:الميْل

(٥) المصدر نفسه١/٣٢٠.

(٦) المصدر نفسه١/٣٢٨.

(٧) انظر في ذلك مقدمة كتاب (من ذيول العبر) للذهبي والحسيني ص/٥، تحقيق محمد رشاد عبد المطلب، ط٢ مصورة، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٦م.

(٨) ١٣/٢١٣ (حوادث سنة٦٥٦هـ) دقق أصوله د. أحمد أبو ملحم وزملاؤه، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧.

(٩) المصدر نفسه ١٣/٢١٥.

(١٠) ابن كثير ١٣/٢١٤ و ٢٢٥.

(١١) انظر ابن كثير١٣/٢١٣ و٢٢٧ وقال عنه أنه أرميني اشتراه خياط ثم صار إلى الملك نور الدين أرسلان الأتابكي صاحب الموصل، فحظي عنده إلى أن صارت له الكلمة ثم قتل أولاد نور الدين غيلة الواحد تلو الآخر حتى استقل بالملك.

(١٢) د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام ٤/١٥٧، ط١، ١٩٦٧م، دار الأندلس، بيروت.

(١٣) انظر دراسة قصائده في (رثاء غير الإنسان في الشعر العباسي) لعبد الله عبد الرحيم السوداني، رسالة ماجستير مطبوعة،ط١، المجمع الثقافي، أبو ظبي،١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص١٠٣.

(١٤) سورة الأنفال/٦٠.

(١٥) محاضرة تقع في ٢٦ صفحة ألقيت يوم الأحد ٢٤ أغسطس ٢٠٠٣م في مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية ثم طبعت في كتاب برقم (٨٤) في سلسلة محاضرات الإمارات الصادرة عن المركز نفسه، ط١، ٢٠٠٤م، وما ذكر ملخص، وما بين الأقواس نص حرفي.

www.alraddadi.me

ود. فالح عبد الجبار يحمل درجة الدكتوراه في علم الاجتماع ويعمل في جامعة لندن متروبوليتان، وله عدد من الكتب بالعربية والإنجليزية تدور حول الدولة والمجتمع في العراق(من نبذة عنه في آخر المحاضرة ص/٣١).

(١٦) صحيفة الجزيرة بالرياض، الأربعاء ١٤٢٧/١٢/٢٨هـ، ٢٠٠٧/١/١٧م العدد ١٢٥٢٩ ص/٠٤٤.

(١٧) جريدة الحياة، السبت ٢٨ أكتوبر ٢٠٠٦م العدد ١٥٩١٢ ص/١١.

(١٨) جريدة الرياض، الأربعاء ١٤٢٧/٨/١٣هـ ،٢٠٠٦/٩/٦م ص/٣٣، العدد ١٣٩٥٣.

(١٩) انظر جريدة الشرق الأوسط، السبت ٢٠٠٦/١٠/٢٨م العدد ١٠١٩٦ص/٣.

(٢٠) انظر ذلك في جريدة الحياة، السبت ٢٠٠٦/١٠/٢٨م العدد ١٥٩١٢ ص/١١.

(٢١) أوردت ذلك كثير من وسائل الإعلام، وانظر جريدة عكاظ السبت ١٤٢٧/٩/٢٢هـ ، ٢٠٠٦/١٠/١٤م العدد ١٤٦٥٨ ص/١٨.

(٢٢) انظر جريدة الوطن السعودية، الثلاثاء ١٤٢٧/١٠/٢هـ،٢٠٠٦/١٠/٢٤م العدد٢٢١٦ ص/١٢.

(٢٣) لقاء مطول مع جريدة الرياض، الأحد١٤٢٧/١٠/١٧هـ ،١٠ سبتمبر ٢٠٠٦م العدد ١٣٩٥٧ ص/١١.

(٢٤) فرانك بيلي: معجم بلاكويل للعلوم السياسية/٤٣٣، ترجمة ونشر مركز الخليج للأبحاث،ط٢٠٠٤،١م، وانظر د. فالح عبد الجبار الدين والإثنية والتوجهات الأيديولوجية في العراق (سابق) ص/٤و٥.

(٢٥) انظر في ذلك ما نشر في جريدة الوطن السعودية، وهو ملخص تقرير نشرته الشبكة الاتحادية الإقليمية للأنباء(إيرين) وهي شبكة شبه رسمية تابعة للأمم المتحدة، وموضوعه عمليات تهريب الفتيات العراقيات للخارج ومن بينهن حوالي ٣٥٠٠ فتاة سجلن مفقودات، الوطن السبت ١٤٢٧/١٠/٦هـ، ٢٠٠٦/١٠/٢٨م العدد ٢٢٢٠ص٢٥.

(٢٦) مجلة الإسلام اليوم، الصادرة عن مؤسسة الإسلام اليوم، السنة الثانية، العدد٢٦، ذو الحجة ١٤٢٧هـ يناير٢٠٠٧م،ص/١٦.

(٢٧) ديوان حمام، ط١ ،١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، جدة ،مطبوعات تهامة، ص/١٦٩.

(٢٨) شاعر عراقي معاصر، كان يصدر مجلة أسبوعية بعنوان (النور) وأخرى بعنوان(الأخلاق) توفي عام ١٣٧٧هـ. والقصيدة نشرت في مجلة (ذكرى) العراقية، عدد ربيع الأول عام ١٣٥٣هـ،ص/٢٨١.

www.alraddadi.me

الكاتب في سطور

- هو عائض بن بنيه بن سالم الردادي، ولد في المدينة المنورة عام ١٣٦٩هـ وتلقى تعليمه بها حتى تخرج في معهدها العلمي سنة ١٣٨٧هـ ،ثم في كلية اللغة العربية بالرياض عام ١٣٩٢/٩١هـ، وحصل على الماجستير عام ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م وعلى الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى والتوصية بطباعة الرسالة سنة ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.
- حصل على دورة في الإدارة المتقدمة من معهد الإدارة العامة بالرياض عام ١٤٠٢هـ بتقدير ممتاز.
- أعد لإذاعة الرياض عدداً من البرامج الثقافية من عام ١٣٩٢هـ إلى عام ١٤٠٩هـ ونشر بعض المقالات أو الزوايا في الصحافة والمجلات المحلية، وكتب بعض الزوايا واصل فيها نشر رؤاه الفكرية.
- عمل أستاذاً متعاوناً في قسم الأدب بكلية اللغة العربية في جامعة الإمام مُحَمَّد بن سعود الإسلامية وألقى بعض المحاضرات العامة وشارك في بعض المؤتمرات والندوات الثقافية.

www.alraddadi.me

- تعين في إذاعة الرياض ١٣٩٢هـ وعمل مذيعاً فرئيساً لقسم التنسيق فمديراً للبرنامج العام فمديراً عاماً للأخبار في وكالة الأنباء السعودية فمديراً عاماً لإذاعة الرياض فمديراً عاماً للأخبار فوكيلاً مساعداً لوزارة الإعلام لشؤون التخطيط فوكيلاً للإعلام الخارجي فمديراً عاما لوكالة الأنباء السعودية.
- شارك في المؤتمرات والندوات الإعلامية في الاتحادات والمنظمات الإذاعية واتحاد وكالات الأنباء العربية.
- رأس اللجنة الدائمة للبرامج في اتحاد إذاعات الدول العربية ٤ سنوات ومثل بلاده عدة مرات في اجتماعات الجمعية العامة والمجلس التنفيذي وحضر عدداً من مؤتمرات وزراء الإعلام وشارك في اجتماعات تخص التدريب الإذاعي في الوطن العربي ، ودرّس في بعض المراكز التدريبية في الداخل والخارج ، وأشرف على عدد من الدورات التدريبية في إذاعة الرياض.
- اختاره اتحاد الإذاعات العربية ضمن لجنة الخبراء ممن تولوا وضع وصياغة أنظمة الاتحاد الإدارية والإعلامية،وحصل على عدة دروع وشهادات تقدير من عدة جهات عن جهوده في المجال الإعلامي والثقافي،وله عدة مؤلفات في الأدب والتاريخ والإعلام.
- عضو في عدد من المؤسسات والهيئات واللجان العلمية والمهنية.
- أشرف على تحرير مجلة العرب بعد وفاة الشيخ حمد الجاسر.
- عضو مجلس الشورى حالياً.

www.alraddadi.me

فهرس المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
مقدمة	٦
من هدي النبوة	٧
التاريخ دروس وعبر	٨
احتلال بغداد سنة ٦٥٦هـ	١٠
عبر من الماضي	١٤
التاريخ يعيد نفسه	١٥
الوجه الجديد للاستعمار	١٦
الطائفية في العراق	١٧
تفتت الطائفة إلى طوائف	٢٢
تصدير التفتيت	٢٥
غياب الوحدة العربية	٢٥
دور الفضائيات في التفكيك	٢٦
الوحدة الوطنية	٢٦
الصحوة بعد فوات الأوان	٢٧
الختام	٢٩
الهوامش	٣٠
فهرس المحتويات.....	٣٢

www.alraddadi.me